مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

مساجد تازة خلال العصر الوسيط
توصيف وتوظيف

د. عثمان سال
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين فاس
مكناس – المملكة المغربية

مُلَخّص

بمجرد انتشار الإسلام في بلاد المغرب الأقصى، عمت المساجد مختلف مدنه وأحيائه، بل وصارت رمزًا من رموز الديانة الإسلامية، وموازاة مع مساهمتها الفعالة في إذكاء الوعي الديني عند المسلمين عبر المنابر والحلقات التعليمية والتي يرجع لها الفضل الأكبر في تربية النشء، فقد شكلت باحاتها أيضًا مسرحًا للبث في العديد من القضايا الأسرية كفض النزاعات، والزواج، والطلاق، وغيرها . وكغيرها من المدن العتيقة بالمغرب الأقصى حفلت تازة خلال العصر الوسيط بوفرة المساجد سواء في الحاضرة أو البوادي، حيث أشاد المؤرخون بأهمية منشآتها المعمارية، إذ صنفت من بين المدن المهمة آنذاك، ولعل هذا ما ذهب إليه الحسن بن محمد الحسن الوزان في كتابه وصف إفريقيا، حينما ذكر أن مساجدها ومدارسها بديعة الصنعة، وهو ما زكاه الإسحاقي في رحلته الحجازية بعدما أبدى إعجابه بالمسجد الأعظم والمدرسة التي تلاصقه . وفي هذا السياق، تأتي هذه الورقة البحثية التي نحاول من خلالها تسليط الضوء على مساجد تازة، وذلك بتبيان مهامها ووظائفها، معتمدين في ذلك على ما جادت به كتب النوازل الفقهية، ورسوم الحوالات الحبسية، وغيرها من المصادر الأخرى.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٥ يوليو ٢٠٢٣
تاريخ قبول النشر: ٢٦ أغسطس ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

الحوالات الحبسية؛ النوازل الفقهية؛ الوظائف والأدوار؛ مساجد تازة؛ العصر الوسيط

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.340683

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عثمان سال. "مساجد تازة خلال العصر الوسيط: توصيف وتوظيف".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ٧٤ – ٨٣.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: salle.outmane@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كَان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

عند ظهور الإسلام بالمغرب الأقصى، انتشرت في معظم مدنه الكثير من المساجد، باعتبارها رمزًا من رموز الحضارة الإسلامية، وبالمثل حفلت تازة خلال العصر الوسيط بوفرة المساجد سواء في الحاضرة أو البوادي، وهو ما صدحت به الوثائق التاريخية بمختلف أنواعها كالمدونات الإخبارية والنوازل الفقهية ورسوم الحوالات الحبسية وغيرها.

وبالنظر لأهمية المنشآت المعمارية التي كانت تحتضنها تازة -خاصة الدينية-فقد صنفت من قبل الإخباريين خلال المرحلة المذكورة من بين المدن المهمة في المغرب، ولعل هذا ما ذهب إليه الوزان في كتابه "وصف أفريقيا" حينما ذكر أن بها ما ((...يقرب من خمسة آلاف كانون، [...] والمدارس والمساجد المبنية بجدران في غاية الإتقان، وتحتل الدرجة الثالثة في المملكة من حيث المكانة والحضارة، ففيها جامع أكبر من جامع فاس، وثلاث مدارس وحمامات وفنادق كثيرة، وأسواق منظمة كأسواق فاس...))[١]. وخصها الإسحاقي بعده بوصف رائع وعجيب مركزا على وصف العمارة الدينية المتمثلة في المسجد الأعظم والمدرسة التي تلاصقه[٢]. مشيرا إلى أنها مدينة ((...آخذة في الحضارة بطرف وحصن حصين من المعاقل التي تعقل بها أثر الحسن القديم، وبها جامع كأحسن ما أنت راء من الجوامع سعة وحصانة وبناء متقنا محكم الشكل، وتلاصقه مدرسة عجيبة...))[٣].

أولاً: مساجد تازة (قراءة توصيفية)

شكلت المساجد قلب أحياء المدن العتيقة، بل علامة من علاماتها المعمارية، ورمزا من رموز مرجعيتها الدينية وتعبيرًا عن هويتها المعمارية، وكانت المساجد في تازة كثيرة العدد؛ ولا تزال هذه الحاضرة الفاتنة تزدان بعدد من المساجد التي يعود تشييدها للعصر الوسيط. ومن أشهرها المسجد الأعظم ومسجد الأندلس. ولعل هذا صدحت به الوثائق التاريخية الدفينة، حيث أتاح لنا الاطلاع على بعضها الوقوف عند عدد منها، وفيما يلي عرض مقتضب لمساجد تازة خلال العصر الوسيط سواء الجامعة أو مساجد الأحياء أو الأحواز:

١/١-مساجد المدينة

المساجد الجامعة

الجامع الأعظم: يعتبر من أقدم مساجد المدينة، بل أجمل معلمة تاريخية وأشهرها في المغرب الأقصى، ويكتسي أهمية خاصة في نفوس التازيين؛ ويرجح صاحب كتاب الاستقصا أن بناءه كان على عهد عبد المومن الموحدي (٤٨٧-٥٥٨/١٠٩٤-١١٦٢) سنة (٥٢٩/ ١١٣٤م)، حيث قال: ((...وَفِي سنة تسع وَعشْرين وَخَمْسمِائة أَمر عبد الْمُؤمن بِبِنَاء رِبَاط مَدِينَة تازا فبنيت وحصن سورها ثمَّ كَانَت محاربته لتاشفين بن عَليّ على نَحْو مَا أسلفناه وَالله تَعَالَى أعلم...)) ج/٢، ١٠٩. إلا أن التاريخ الذي أورده لا يذكر فيه المسجد بالضبط وهو التاريخ الذي نقله عن ابن أبي زرع صاحب روض القرطاس، ويظل هذا التاريخ غير دقيق ويصعب الأخذ به. فإذا عدنا إلى «مذكرات» البيذق، الذي يقدم لنا وصفا كرونولوجيا لحملات عبد المؤمن في شمال المغرب سنستشف أن الموحدين فرضوا سيطرتهم على بلاد تازة بحلول سنة ٥٣٦ هجرية، موافق ١١٤١-١١٤٢ ميلادية، مما يعني أن بناء المسجد لم يتم إلا في السنوات التي تلت هذا التاريخ، أي (٥٣٦ه/ ١١٤٢م)[٤].

وتطالعنا الكتابات المنقوشة على الزليج والمحفوظة بالجامع الأعظم إلى يومنا هذا بأن هذا المسجد حظي بعناية كبيرة خلال العصر المريني، فقد أدخل عليه السلطان أبو يعقوب يوسف مجموعة من الزيادات والتعديلات، حيث أمر السلطان المذكور بتوسعته وإصلاح الجزء الموحدي القائم، وانطلقت هذه الأشغال سنة ١٢٩٢م وانتهت في شهر أكتوبر من سنة ١٢٩٣م[٥]. غير أن ابن أبي زرع أورد تاريخًا أخر حينما ذكر أنه في ((... سنة ثلاث وتسعين وستمئة فرغ من بناء جامع تازة، وعملت الثريا بالجامع وزنتها اثنان وثلاثون قنطارا من النحاس، وعدد كؤوسها خمسمئة كأس وأربعة عشر كأسا، وأنفق في بناء الجامع وعمل الثريا من المال ثمانية ألاف دينار ذهبا...))[٦]. وهو التاريخ نفسه الذي أورده الناصري في كتابه الاستقصا[٧]. وما يزال المسجد الأعظم إلى يومنا هذا يحتفظ بقدسيته عند الأسر التازية، فهو يشكل معلمة دينية تزين فضاء المدينة العتيقة وتحفة فنية شاهدة على عراقة المدينة وأصالتها.

جامع الأندلس: من المعالم الفريدة الضاربة في القدم، يتوسط مدينة تازة العتيقة، ويعرف أيضا بمسجد "دار لمخزن"، ولا يملك شهرة الجامع الأعظم، وحسب علمنا لا وجود لإشارات عنه في المدونات الإخبارية أو كتب الرحلات، ويبدو من خلال رسوم الحوالات الحبسية أنه كان قائما خلال العصر المريني، بدليل ورود ذكره في رسم مؤرخ بـ ٨٤٨هـ/١٤٤٤م، أشير فيه إلى استفادة الجامع من أوقاف على قارئ الشفا داخل المسجد، حيث إن شخصا من أهل تازة يدعى "أحمد بن الشيخ المرحوم أبي عبد الله محمد بن محمد المعروف بالغزال" ((...أوصى بثلث متخلفة لقارئ الشفا بمسجد الأندلس أحد مساجد مدينة تازى المحروسة ...))[٨]. من جهة أخرى استفاد هذا الجامع من أوقاف عقارية لحساب القيمين الدينيين به[٩]، وتجدر الإشارة إلى أن تاريخ بناء هذا المسجد غير معروف خاصة أمام صمت المصادر الوسيطية التي اكتفت بالتلميح للمسجد الأعظم، إلا أن ما ورد برسوم الحوالات الحبسية من إشارات تتعلق باستفادة هذا المسجد من الأوقاف لا تفي بالغرض لكون المسجد خلال هذه المرحلة كان قائما وكانت تقام فيه الصلوات وخطب الجمعة وكان مجالا لتعليم النشء من خلال قراءة كتاب الشفا، مما يدل على إمكانية تواجده في العصر الموحدي، ولعل هذا ما خلصت إليه الدراسة الأركيولوجية بالنظر للخصائص العمرانية التي ميزته خاصة المئذنة[١٠]، ولتحديد زمن هذه المعلمة بدقة لابد من تكثيف التنقيب الأثري بالمدينة الذي سيسهم ولاشك في الكشف عن معطيات أخرى.

مساجد الأحياء

تماشيًا مع خصوصية المدينة الإسلامية تميزت المدينة العتيقة في تازة بوجود مساجد عديدة أخذت أسماءها من المهن والحرف السائدة بالأحياء؛ كمسجد الحدادين ومسجد الغزالين، أو ارتباطًا بأماكن تواجد الأولياء الصالحين؛ كمسجد الولي سيدي محمد بن عطية والولي الصالح سيدي أبي علي سالم، وعليه توزعت بالمجال مساجد كثيرة انتشرت عبر أزقتها ودروبها، في إشارة لطبيعة العلاقة القائمة بين المساجد والحرف والأولياء. ويمكن تصنيف المساجد التي وقفنا عندها كالآتي:

مساجد ارتبطت أسماؤها بالأولياء

سميت بعض المساجد داخل المدينة العتيقة باسم عدد من الأولياء والصالحين وذلك تيمنا بهم واستحضارا لبركاتهم ورعهم وزهدهم ومنها:

مسجد سيدي عزوز: يعد حسب الروايات الشفهية من المساجد المقدسة بالنسبة لساكنة المدينة لارتباطه بالولي الصالح سيدي عزوز، يتوسط المدينة العتيقة، ويجاور رحبة الحبوب (الزرع) وفندق ابن كيران المحادي لحمام صب الما، هذا الموقع جعله في مجال اقتصادي حيوي، خاصة وأنه ينفتح على ثلاثة شوارع، منها ما يؤدي للمسجد الأعظم والملاح القديم[١١]، المسجد المذكور كان قائما خلال العصر المريني، وسندنا في ذلك رسوم الحوالات الحبسية التي أفادت توظيفه لوصف حدود بعض أملاك الأحباس، وأيضًا استفادته من هبات وقفية منها الوقف الموجود بـ: ((...زقاق الحطابين التي هي ملك ووقف على مسجد سيدي عزوز...))[١٢].

مسجد الولي سيدي محمد بن عطية: يقع هذا المسجد في الزاوية الجنوبية الشرقية للمدينة، ويجاور مجموعة من الأبواب التي تحيط بالمدينة العتيقة منها "باب السرية" و "باب القبور القديمة" وقد استفاد من حبوس متنوعة خلال العصر المريني، منها أوقاف توجد جوف ((...أرض مسجد الولي المتبرك به المدعو سيدي عطية...))[١٣]، علاوة على هبات وأوقاف خلال العصر العلوي وبالتحديد على عهد السلطان المولى إسماعيل[١٤].

مسجد الولي الصالح سيدي أبي علي سالم: ينسب المسجد لأبي علي سالم، ويبدو من خلال بعض الإشارات الواردة برسوم الحوالات أنه كان شخصية دينية ورعة، حيث تمت تحليته في بعض لوحاتها بـ "الولي الصالح" وأحيانا تلمس أهل تازة لبركاته في أدعيتهم بترديد عبارة "نفعنا الله ببركته". وعلى غرار بقية مساجد تازة استفاد هذا المسجد من عائدات الأوقاف مع المسجد الأعظم كما جاء في أحد الرسوم ذلك أن ((...بعضها وقف على المسجد الأعظم، وبعضها وقف على مسجد الولي الصالح سيدي أبي علي سالم نفعنا الله به وبأمثاله...))[١٥].

مسجد الولي الصالح أبي الفتوح: له صلة بالولي الصالح أبي الفتوح؛ الذي كان يعتبر شخصية دينية تقية عند أهل تازة، وحسب مبروك الصغير ينسب إلى هذا الولي شراء الماء لأهل مدينته من قبيلة غياثة، يقع هذا المسجد في الواجهة الغربية للمدينة بجوار باب زيتونة[١٦]، وعلى منوال المساجد الأخرى؛ استفاد المسجد من أوقاف عدة حيث ((...عهد الطالب الخير سيدي أحمد بن سيدي عبد الله الشريف عدة للقاء الله تعالى[...] وقفا[...] على مؤذن مسجد الوالي الصالح سيدي أبي الفتوح وعلى مؤذن مسجد زقاق أبي الطاهر داخل مدينة تازى ...))[١٧].

مسجد الزاوية: غالبا ما ترتبط الزوايا بولي أو صالح، والمسجد المذكور ينسب إلى الزاوية دون ذكر الولي، فقد يكون مسجدا تابعا للأولياء الذين سبق ذكرهم قبل، وقد يتعلق الأمر بمسجد آخر يرتبط بولي آخر، والإشارة الوحيدة التي وقفنا عندها تتعلق بذكر أوقاف على مساجد تازة الموجودة بضفة وادي انملي المتصلة بمسجد الزاوية[١٨].

مسجد الجوزاتي: من المساجد التي لم تشر إليها المصادر التاريخية، ولا يحظر حتى في الروايات الشفوية عند أهل تازة، وفي الغالب يدخل ضمن المساجد الوسيطة التي اندرست بفعل الخراب والفتن والحروب المحتدمة التي كانت تعرفها المدينة، والمسجد في الغالب له صلة بإحدى شخصيات المدينة حيث كشفت رسوم الحوالات عن فقهاء وحجاج كثر كانوا يحملون لقب "الجوزاتي"، وقد ورد ذكر هذا المسجد في سياق وصف أوقاف بمدينة تازة مثل ((...العرصة الكائنة بالموضع المسمى بالمسرح داخل المدينة المذكورة المتصل بجامع الجوزاتي عمره الله تعالى بدوام الذكر فيه وبحوانيت الجزارين...))[١٩].

مساجد ارتبطت أسماؤها بالحرف

تعددت أسماء أحياء المدينة العتيقة تبعا لتعدد الحرف والمهن داخلها، واستجابة لاحتياجات السكان، فقد كان لكل تجمع حِرفي يحظى مسجد يحمل اسمه ويؤشر على وجود هذه الحرفة في هذا الزقاق أو ذاك.

مسجد الغزالين: من مساجد تازة العتيقة، وفي غياب معلومات شافية حوله، يبدو من خلال اسمه أنه كان ذو صلة بالحرفة المعمول بها في ذلك المكان. وقد أشارت رسوم الحوالات الحبسية لمعلومات عنه منها ما يفيد ((...قراء الحزب بمسجد[٢٠] الغزالين...))[٢١].

مسجد الحدادين: الراجح أن تكون تسمية المسجد بهذا الاسم مرتبطة ارتباطا وثيقا بامتهان عدد من الحرفيين لحرفة الحدادة، والتي كانت منتشرة بكثرة بمدينة تازة، والواضح تواجده بمكان عملهم كوسيلة لتمكنيهم من أداء فرضة الصلاة، وقد وردت عنه إشارة في رسوم الحوالات الحبسية، في سياق نزاع عن الماء بين أهل تازة وأهل الذمة خاصة اليهود الذين كانوا يجاورون مسجد الحدادين[٢٢].

مساجد ارتبطت أسماؤها بالأزقة

مسجد الحريم: تماشيا مع خصوصيات الشريعة الإسلامية الداعية لتجنب الاختلاط بين النساء والرجال، شهدت المدينة العتيقة أماكن خصصت للنساء فقط، آية ذلك مسجد الحريم الذي ورد ذكره في رسوم الحوالات الحبسية، والذي في الغالب ما يكون تابعا لأحد المساجد المذكورة سابقا، وبدوره استفاد من أوقاف خصصت لاقتناء بعض لوازمه كما يفهم من عبارة، ((...ضروريات مسجد الحريم...))[٢٣]. وعلى غرار المسجد نجد مجموعة من الأزقة المحيطة بموضع المساجد كان يطلق عليها الاسم نفسه؛ مثل "زقاق الحريم"[٢٤].

مسجد زقاق أبي طاهر: رغم أن المسجد من خلال اسمه يوحي ارتباطه بولي من أولياء المدينة، إلا أن ما وقفنا عنده من معطيات اكتفت بالإشارة إلى ارتباطه بالزقاق الموجود به، حيث ورد ذكر عبارة "مسجد زقاق أبي الطاهر"[٢٥]، وبالمثل كان له نصيب من الأوقاف منها ما حبسه ((...أبو الحسن علي بن يحيى على الجامع الأعظم من مدينة تازى أمنها الله تعالى مع المدرسة وجامع الأندلس ومسجد أبي الطاهر كل ذلك من مساجد المدينة المذكورة جميع الجنان بالقلعة كائنا ...))[٢٦].

مسجد مسطاسة: في الغالب تسميته مرتبطة بالدرب الذي يوجد فيه بمدينة تازة العتيقة، اطلعنا على ذكره برسوم الحوالات الحبسية في سياق أوقاف استفاد

منها مؤذن ((...يعين بمسجد مسطاسة[...] عام تسعة وأربعين وسبعمائة...))[٢٧].

٢/١-مساجد الأحواز

على غرار كثرة المساجد بمدينة تازة مكنتنا المصادر والوثائق التاريخية من الوقوف على مجموعة من المساجد بأحواز المدينة، بدءا بالعصر الموحدي وصولاً للعصر المريني، ومن هذه المساجد:

مسجد دشر قلال: ورد ذكر هذا المسجد في كتاب "أخبار المهدي بن تومرت" حيث قال "البيدق" أنه بعدما تجاوز مع رفيقه المهدي منطقة جرسيف ((...جددنا السير حتى وصلنا دشر قلال فنزلنا فيه بالمسجد فسمع المعصوم بالدشر اللهو وصراخ الرجال والنساء، فقال غيروا هذا المنكر...))[٢٨]. والمنطقة المذكورة هي المعروفة اليوم بـ"سبت بوقلال" التي تبعد عن تازة المدينة بحوالي أربعة عشر كيلومترًا وتقع بتراب قبيلة مكناسة في الطريق اتجاه أكنول.

مسجد أبي بدر: يوجد هذا المسجد ببلاد بني وجان بأحواز تازة، وقد ورد ذكره برسوم الحوالات الحبسية الخاصة بالعصر المريني، حيث تم التصريح بوجوده في أحواز تازة وبالضبط ((...ببلاد بني وجان حوز مدينة تازى أمنها الله تعالى المتصل بمقبرة مدشر أبي يدر[....] وأسلم الجنان المذكور ولمسجد أبي بدر المذكور تصرف غلاته في سائر ضروریاته لكونه وجد في رسم وقف عليه شهوده أنه حبس على المسجد المذكور...))[٢٩].

مسجد السيتاني: هذا المسجد وردت عنه إشارة بمعيار الونشريسي في سياق الحديث عن طائفة من اتباع المهدي بن تومرت كانوا يخالفون مذهب الدولة على العصر المريني ((...فاجتمع الناس عليهم في مسجد السيناتي وبحثوا فلم يوجد عندهم شيء من العلم، واتفق الناس حينئذ على أنهم قوم جهلة وأنهم يستتابون، فإن تابوا وإلا قتلوا، وكنت أنا حاضراً لذلك، فتابوا وانصرفوا، وما أفلتهم من القتل حينئذ إلا توبتهم على يد سيدي أبي عبد الله بن عطية رحمه الله تعالى...))[٣٠].

مسجد القرمود: من المساجد التي تعتبر معلمة من معالم منطقة ملال بجزناية الشمالية، غير أننا نجهل تاريخ تأسيس هذا المسجد الذي يبقى غامضًا ولا وجود -حسب علمنا-لوثائق تاريخية تؤكد ذلك، غير أن معظم الروايات الشفهية تؤكد قدم هذه المعلمة، مع تسجيل تضارب في التأسيس بين العصرين الموحدي والمريني[٣١].

من خلال هذا الجرد يتضح أن تازة عُرفت بوجود عدد كبير من المساجد، حيث عثرنا على ما يزيد عن اثني عشر مسجدًا بالمدينة العتيقة فقط، وأربعة مساجد في الأحواز، وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الجرد هو فقط ما سمحت به مضان بعض الوثائق التاريخية التي أتيحت لنا فرصة الاطلاع عليها، أمر قد يختزن دلالات رمزية متعددة منها حضور الوازع الديني عند سكان المدينة، ومنها الأدوار المتعددة والمتداخلة التي أنيطت بالمساجد كمؤسسات تتجاوز حدود الجانب التعبدي إلى مؤسسات لها مركزيتها بالنسبة للدولة لقدرتها على ممارسة وظائف متنوعة.

ثانيًا: وظائف المساجد التازية

يُعَدّ المسجد من المؤسسات المقدسة عند المسلمين، حيث شيدت في العالم الإسلامي مئات المساجد التي اضطلعت بأدوار مهمة عجزت عن القيام بها مؤسسات أخرى، فعلاوة على الصلاة والشعائر التعبدية، كانت للمساجد وظائف أخرى تعلقت بسياسة الدولة وإدارة شؤونها، وهو ما نستشفه من تعقب أدوار مساجد تازة.

١/٢-الوظيفة القضائية

عمل قضاة المغرب على استثمار باحات المساجد للنظر في الخصومات أو الفصل في أمور تتعلق بمصالح العامة. وعلى هذا النهج صار قضاة تازة الذين اتخذوا المساجد كمؤسسات للفتوى والحكم للبتِّ في قضايا مجتمعهم والنظر فيها، بدافع الضرورة الدينية والسياسية والاجتماعية. يعضد ذلك الإشارات التي وردت عنهم في كتب النوازل والتي كشفت عن مناقشتهم لبعض القضايا داخل بيوت الله، حيث عرضت النوازل التازية لنماذج من الصراعات السياسية[٣٢] التي شهدها المجال وتصدى الفقهاء لحلها انطلاقا من أرضية المسجد.

في السياق ذاته، أشار الونشريسي في معياره؛ توظيف قاضي من قضاة تازة بيت الله مكانا للنظر في مسألة المتنازعين، حيث ذكر أن قاضيا جلس في المسجد بتازة في أيام العيد، وقضى بزواج فتاة بكر من أبيها لرجل آخر؛ باعتبار كفاءته رغم معارضة الأب لكونه الوصي[٣٣]، مما يعني أن المساجد بتازة لم تكن مخصصة للصلاة فقط، بل تم استغلال فضاءاتها للنظر في الشؤون العامة للناس وحل مشاكلهم الأسرية. ويزكي هذه النازلة ما ورد في نازلة أخرى أبرزت توظيف المساجد التازية من قبل القضاة؛ حيث أشار الونشريسي إلى ظهور طائفة دينية خالفت ما عليه أهل السنة وخرقت الإجماع بأحواز تازة، طائفة ورد فيهم ظهير من السلطان في مدة قضاء الترجالي؛ يدعوه للبحث في أمرهم، فاجتمع الناس عليهم في مسجد "السيناتي" واتفقوا على كونهم قوم جهلة، وعليهم طلب التوبة وإلا قتلوا[٣٤].

النازلة المذكورة أبانت عن الأثر البارز للقضاة من خلال استثمارهم للمساجد سواء داخل المدينة أو باديتها، حيث كان المسجد مكانا تَدَاول فيه القضاة أمر عصيان الطائفة المخالفة، الشيء الذي يفصح لنا عن التنسيق بين المؤسسة القضائية وباقي المؤسسات الأخرى داخل المجال المدروس؛ في محاولة لضبط الأمن وضمان الاستقرار، وحري بنا أن نلفت الأنظار إلى أن تسخير باحات المسجد في مسائل وأغراض تتعلق بالقضاء لم يكن عرضًا بل كان أمرًا منظمًا من لدن الجهاز الحاكم للدولة المرينية، خاصةً إذا علمنا أن البحث في قضية الطائفة الخارجة عن المذهب المالكي كان بظهير[٣٥] من السلطان المريني[٣٦].

لقد استطاع قضاة تازة من خلال استعمال بيوت الله حلحلة العديد من المشاكل مما يعكس أهمية المساجد كمؤسسة لها قيمة وظيفية عدلية؛ لأنها تضمن في الغالب أن يكون القاضي بداخلها متحليا بطهارة القلب ومخلصا نيته لله؛ أملاً في إصدار أحكام نزيهة وشفافة لا تشوبها نقائص؛ من جهة أخرى شكل القضاء بالمساجد وسيلة فعالة لكسب ثقة الجماعة في المؤسسة القضائية بشكل عام.

٢/٢-الوظيفة السوسيو اقتصادية

بالموازاة مع الأدوار القضائية، كانت القضايا الأسرية حاضرة في باحات المساجد، حيث أشارت بعض النوازل الفقهية إلى استثمار المساجد كأماكن للحسم في أغراض اجتماعية كعقد الأنكحة بين الأزواج، وهو ما يفهم من العبارة التي أوردها صاحب المعيار حينما ذكر أن القاضي جلس في ((...المسجد في أيام العيد وقال للرجل زوج ابنتك من فلان...))[٣٧].

ويعضد هذه النازلة واقعة أخرى أشار فيها الونشريسي إلى أن بعض عدول تازة حضروا موطنا بجامع تازة، انعقد فيه النكاح بين زوجين، حيث ذكر أن ((...رجل ادعى على رجل أنه أنكحه ابنته بكرا وأنكر أبوها، فاستظهر المدعي برسم استرعاء ثابت عند بعض قضاة البوادي بشهادة رجال من البادية؛ شهدوا بأنهم حضروا بينهما موطنا بجامع تازا مع بعض العدول، انعقد فيه النكاح بينهما...))[٣٨].

هذا وتفيد بعض الحوالات الحبسية أن المساجد سُخِّرت لفض النزاعات الاجتماعية من قبل القضاة، حينما ورد في رسم أن ((...المدعو أبا علي بن محمد بن عبد الله بن الشيخ التاجر المبرور المرحوم أبي عثمان سعيد الجوزاني اليمني مع الشاهد العدل حول مضمن رسم الشراء الذي شهد فيه، فحلف الجوزاني المذكور بالمسجد الأعظم أمام القاضي أن الشاهد صاغ مضمون العقد بخلاف حقيقة المبايعة...))[٣٩].

ومن ناحية أخرى شكلت المساجد مرتكزا للنشاط الاقتصادي، فقد كان الجامع الأعظم ومعه بقية المساجد الاخرى بتازة محور الحركة الاقتصادية؛ إذ شكل النواة التي تدور حولها المراكز التجارية بالمدينة، وهو ما أفادته بعض النوازل؛ منها تلك التي سئل فيها العبدوسي عن مسجد بتازة له حوانيت كثيرة تهدمت سقفها، فعبارة ((... وسئل عن مسجد له حوانيت كثيرة، وكانت حوانيت المسجد بالسوق عندنا من تازا...))[٤٠]، وفي ذلك تَعبير عن تَركز الأنشطة التجارية بجانب المساجد لكونها مركزا لتجمع الساكنة، ومجالاً لترددها لأداء الصلوات، وهو ما يبرز كون الرواج التجاري دائم الصلة ببيوت الله خاصة المسجد الأعظم الذي كان يجسد النواة التجارية للمدينة.

٣/٢-الوظيفة السياسية

كانت المساجد التازية مكانا للشورى بين كبار الفقهاء لمناقشة القضايا السياسية الكبرى للدولة، سندنا في ذلك ما أورده الونشريسي حينما ذكر أن بقايا أتباع المهدي بن تومرت ((...ورد فيهم ظهير من السلطان رحمه الله في مدة الترجالي أن يبحث عن أمرهم، فاجتمع الناس عليهم في مسجد السيناتي وبحثوا فلم يوجد عندهم شيء من العلم، واتفق الناس حينئذ على أنهم قوم جهلة وأنهم يستتابون، فإن تابوا وإلا قتلوا. وكنت أنا حاضرًا لذلك، فتابوا وانصرفوا، وما أفلتهم من القتل حينئذ إلا توبتهم على يد سيدي أبي عبد الله بن عطية رحمه الله تعالى ...))[٤١].

وتجدر الإشارة إلى أن النظر في القضايا السياسية؛ كان ضروريًا باعتبار السكوت عليها مدخلا لجلب الفتن والصراعات، ولكون القضاة عنصرًا فاعلاً في النظام السياسي، فهم الدرع الواقي للدولة من كل اضطراب. من خلال إسهامهم في تهدئة العديد من القضايا ودعم مشروعية الدولة وتثبيت المذهب المالكي، وهذا برهان على أهمية خطة القضاء في هذا المجال، وأهمية المسجد من جهة ثانية كفضاء استوعب جميع هذه الأطياف في محاولة لبناء الاستقرار السياسي.

٤/٢-الوظيفة التعليمية

إن العملية التعليمية لم تكن يوما منفصلة عن المساجد عير تاريخ العالم الإسلامي، وهو ما أشار إليه حتى المستشرقين، وعلى رأسهم "ول ديورانت" الذي أكد أن: ((...الزائر إذا دخل مدينة في أي بلد من بلاد الإسلام يخالجه شك في أنه يستطيع الاستماع إلى محاضرة علمية في مسجد المدينة الأكبر في أي ساعة من ساعات النهار...))[٤٢]. وهو ما عضدته "زيغريد هونكة" أن في مساجد العالم الإسلامي ((...يجلس إلى جوار الأعمدة الدقيقة الجميلة الأساتذة، وحلقة الدرس من الطلاب، وهم يلقون محاضراتهم والأبواب مفتوحة والحضور مباح للجميع...))[٤٣].

وتؤكد هذه الشهادات أن المساجد في العالم الإسلامي كانت نبراسا للعلم فلم تخل يوما من طلبة العلوم ولا سيما العلوم الشرعية، وهي وظيفة ظلت لصيقة ببيوت الله، وبالمثل كانت مساجد تازة وعلى رأسها المساجد الجامعة، تحفل بحلقات الدروس والعلم؛ خاصة وأن المدينة تتوفر على ثلة من العلماء والفقهاء والمفتين، استطاعت تكوين أجيال من الطلبة أصبحوا مقصدا للعلم وعلى رأسهم أبي الحسن الصغير حامل راية المذهب المالكي، والذي قدمه يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني لمنصب القضاء في تازة على سن الفتوة والأشياخ متوافرون.[٤٤]

فقد كانت المساجد التازية، مجالاً لتدريس أبناء المدينة من جهة؛ وتحفيظهم القرآن الكريم؛ وتلقينهم أصناف العلوم الأخرى من جهة ثانية، آية ذلك ما ورد في رسوم الحوالات الحبسية من خلال ذكر العديد من الكراسي العلمية التي كانت تقام بجوامع تازة خاصة المسجد الأعظم ومسجد الأندلس، حيث استفاد الأول من وقف ((...الشاب الأنجب عياد بن عياد الطالسي المالكي على قارئ الشفا بعد صلاة الصبح على كرسي الجامع الأعظم من مدينة تازى أمنها الله...))[٤٥] واستفاد الثاني من حبس ((...على قارئ الشفا به، فمن ذلك العرصة المنسوبة لشقرون بن عبو الكائنة بباب الشريعة وعلى مقربة من الباب المذكورة...))[٤٦].

ومن تجليات الوظائف التعليمة توفر المساجد على خزانات تمتلئ رفوفها بنفائس الكتب المخطوطة، والشاهد عندنا خزانة المخطوطات بالمسجد الأعظم التي تعتبر من الدرر التراثية لتازة التي تحتضن بين جدرانها كنوزا نفيسة، مخطوطات تحكي عن حضارة متلاشية لمجال كان في صدارة مجالات المغرب الأقصى.

الأدوار المذكورة كانت من الأسباب التي خلقت المناخ الملائم لتطور العلوم الدينية، وهو ما جسده وجود عدد كبير من العلماء والقضاة والمفتين التازيين الذين بلغت شهرتهم الآفاق؛ وكان لهم دور كبير في نشر العلم والمعرفة من خلال عنايتهم ورعايتهم للقرآن والسنة وعلوم اللغة وغيرها من العلوم الأخرى.

وتأسيسًا على هذه الوظائف أصبحت المساجد التازية مؤسسات عظيمة وذات رمزية روحية، وهو ما جعل أهل تازة يتزلفون إليها بالنُذر عبر التبرعات والصدقات من أجل الاستمرار في أداء واجباتها، وهو ما كشفت عنه بعض المسائل الفقهية مثل النازلة التي أجاب عنها الفقيه العمراني الشريف بوجوب أداء النذر

بالنسبة للمرأة التي أشهدت على نفسها أنها ((...متى راجعت مفارقها فلانًا من الطلقة الخليعة التي طلقها قبل هذا، فإنها ألزمت نفسها أداء خمسين دينارا من الذهب المعين الكبير الضرب للجامع الأعظم بتازى المحروسة...))[٤٧]. وبالمثل؛ كانت الأسر التازية توصي بنصيب من تركتها للمسجد الأعظم بعد الوفاة، وهو ما كشفت عنه الواقعة التي استفتي فيها العبدوسي حيث ذكر أن رجلا ((...أوصى بثلث متخلفة لثلاثة رجال معينين، ثم قال في وصيته: فمن مات منهم يرجع النظر في نصيبه لإمام الجامع الكبير بتازا...))[٤٨]. هذا مع الاهتمام بترميم المساجد وحمايتها من الخراب، كما هو واضح في النازلة التي سئل خلالها العبدوسي عن ((...أطراف من نحاس تألقت بالجامع الأعظم من تازى ولا بقي للجامع فيها منفعة وإصلاحها بدراهم، ويخاف إن بقيت أن تضيع...))[٤٩]. كلها سلوكات تعكس ذهنية المجتمع التازي في حماية معماره الديني وضمان استمرارية وظائفه وتفصح عن سمو مكانة المساجد التازية.

خَاتِمَةٌ

إن حديثنا عن مساجد تازة لم يكن من باب بيان قوة عمارتها، أو من باب التباهي بمساجدها، أو حتى بحثا في أنواعها وعددها، بل كانت غايتنا بيان الأدوار التي أدتها خلال العصر الوسيط؛ ذلك أن القيمة التي تكشف عنها هذه الدراسة توضح بأن مساجد تازة كغيرها من المساجد الأخرى في المغرب الأقصى أو الغرب الإسلامي عموما، كانت شبيهة بخلية نحل لم تقتصر مهمتها على الصلاة فقط، بل تعدته إلى أغراض الدين والمجتمع كتعليم الأطفال والطلاب ومباشرة أمور القضاء والإفتاء والشورى. وعليه فقد عدت من المؤسسات التي تدخل ضمن الخطط الدينية التي كان لها موقع متميز لدى الدولة، فحري بنا استحضار تلك الأدوار والعمل على إحيائها في مجتمعنا، في وقت أصبحت فإذا كانت المدرسة اليوم مجالا لتلقين المعارف، فإن المساجد – رغم انكماش وظائفها في هذا العصر بسبب تعدد المؤسسات-أرضيات ومجالات لبناء القيم والفضائل النبيلة، وتلك هي الوسيلة الفعالة لصناعة إنسان متكامل قادر على القيام بأدواره على أكمل وجه.

الملاحق

كتاب تبصرة اللخمي، حبسه أبو عنان المريني على المسجد الأعظم بتازى

المدخل القديم للمكتبة المرينية الموجودة بالمسجد الأعظم

صومعة جامع الاندلس بالمدينة العتيقة

الاحالات المرجعية:

(١) الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الأفريقي، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، ج/١، ص٣٥٤.

(٢) أبو محمد سيدي الشرقي بن محمد الإسحاقي، **رحلة الوزير الإسحاقي الحجازية**، دراسة وتحقيق محمد الأندلسي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية، دار أبي رقراق للطباعة وللنشر، الطبعة الأولى ٢٠١٧، ج/١، ص ١٥٥. يُنظر أيضًا:

Lévi-Provençal; **Un nouveau texte d'histoire mérinide: Le Musnad d'Ibn Marzuk** ; Emile Larose éditeur ; Paris ;1925. P 2.

(٣) الإسحاقي، **رحلة الوزير الإسحاقي ...** ج/١، ص ١٥٥.

(4) Henri terrasse, la grande mosquée de Taza, les éditions d'art et d'histoire, paris, pp 17-18.

(5) Ibid., pp 18-19.

(٦) ابن أبي زرع الفاسي، **روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، منشورات دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧٢، ص ٤٠٩.

(٧) قال الناصري: ((...سنة ثلاث وتسعين فرغ السلطان يوسف من بناء جامع تازا وعلقت به الثريا الكبرى من النحاس الخالص وزنها اثنان وثلاثون قنطارا وعدد كؤوسها خمسمائة كأس وأربعة عشر كأسا وأنفق السلطان في بناء الجامع وعمل الثريا المذكورة ثمانية آلاف دينار ذهبا...)). يُنظر: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتب العلمية -بيروت، الطبعة الثانية ٢٠٠١، ج/٣، ص ٧٥-٧٦.

(٨) حوالة أحباس تازة، اللوحة ١٢

(٩) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٣١

(10) Saghir Mabrouk, **la ville de Taza: recherche d'histoire d'archéologie monumentale et d'évolution urbain**, Thèse de doctorat, Université de Paris,1992, volume II, p :321-332

(11) Saghir Mabrouk, **la ville ....op.cit**, v II, p 345

(١٢) حوالة أحباس تازة، اللوحة ١٧٤.

(١٣) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٥٦.

(14) Saghir Mabrouk, **la ville ....op.cit**, v I , p 357

(١٥) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٩٨.

(16) Saghir Mabrouk , **la ville ....op.cit**, v II p 353

(١٧) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٢٧٣.

(١٨) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٦٨.

(١٩) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٢٢٨.

(٢٠) هذا المسجد كان ينعت أيضًا بمسجد سيدي عزوز؛ سندنا فيما نقول ما ورد في رسم الحوالة الحبسية ((...وهو الذي لجانب الحبس نصفه على قراء الحزب بمسجد الغزالين وسمي أيضًا بمسجد الحمام والنصف الآخر لمن تركه من الحبس بجميع منافع بياض الجنان المذكور وعامة مرافقة وكافة حقوقه...)). يُنظر اللوحة ١٣٠ من حوالة أحباس تازة.

(٢١) حوالة أحباس تازة، اللوحة ١٢٩-١٣٠.

(٢٢) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٣٠٣.

(٢٣) حوالة أحباس تازة، اللوحة ١٤.

(٢٤) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٢٥٤.

(٢٥) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٤٦.

(٢٦) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٤٢.

(٢٧) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٢٩٥.

(٢٨) أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة-الرباط ١٩٧١، ص ٢٢.

(٢٩) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٢٠٤.

(٣٠) الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، إشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية، ١٩٨١، **ج/٢، ٤٦٩.**

(٣١) يرجى مراجعة:

- Abdelkrim KHABBACH, Aspects religieux, économiques et environnementaux des monuments anthropologiques de la tribu, Gzennaya (nord-est du Maroc), cas de Malal, Revue AFN .Maroc, N° : 27-28 , Décembre 2020

(٣٢) أشار الونشريسي إلى ظهور طائفة بدعية خالفت ما عليه أهل السنة وخرقت الإجماع بأحواز تازة، طائفة ورد فيهم ظهير من السلطان في مدة قضاء الترجالي؛ يدعوه للبحث في أمرهم، فاجتمع الناس عليهم في مسجد السيناتي واتفقوا على كونهم قوما جهلة، وعليهم طلب التوبة وإلا قتلوا. يُنظر: الونشريسي، المعيار...، ج/٣، ص ٤٦٠.

(٣٣) الونشريسي، المعيار...، ج/٣، ص ٦٨.

(٣٤) الونشريسي، المعيار...، ج/٣، ص ٤٦٠.

(٣٥) الونشريسي، المعيار...، ج/٣، ص ٤٦٠.

(٣٦) لعل المقصود به السلطان أبو الحسن المريني (٧٤٩- ٧٣١هـ/ ١٣٣١-١٣٤٨م)، الذي عاصر هذه المرحلة، سندًنا في ذلك هو كون القاضي التازي أبي عبد الله الأصبغ عيسى بن محمد الترجالي الذي وصله الظهير السلطاني للبث في القضية، سبق أن أثبت في سياق نازلة أخرى مؤرخة بتسعة وثلاثين وسبعمائة. يُنظر: الونشريسي، المعيار...، ج/٣، ص ٨٠.

(٣٧) الونشريسي، المعيار...، ج/٣، ص ٦٧.

(٣٨) الونشريسي، المعيار...، ج/٣، ص ٩٧.

(٣٩) حوالة أحباس تازة، اللوحة رقم ٦٠.

(٤٠) الونشريسي، المعيار...، ج/٧، ص ٧٩.

(٤١) الونشريسي، المعيار...، ج/٢، ص ٤٦١.

(٤٢) ويل ديوانت، قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود، محمد بدران، عبد الحميد يونس، محمد علي أبو درة، فؤاد أندراوس، عبد الرحمن عبد الله الشيخ، دار الجيل، بيروت – لبنان، ٢٠٠٢، ج/١٣، ١٦٩.

(٤٣) زيغريد هونكة، شمس الله تشرق على الغرب فضل العرب على أوروبا، ترجمة وتحقيق فؤاد حسنين علي، دار العلم العربي، ٢٠١٠، ص ٢٩٩.

(٤٤) أحمد بن القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، طبعة ١٩٧٣، ج/٢، ص ٤٧٢. ابن القاضي، درة الحجال...، ج/٣، ص ٢٠٤.

(٤٥) حوالة أحباس تازة، اللوحة رقم ١٥٩.

(٤٦) حوالة أحباس تازة، اللوحة رقم ٥٤.

(٤٧) الونشريسي، المعيار...، ج/٤، ص ١١١.

(٤٨) العبدوسي، أجوبة العبدوسي...، ص ٤١٤.

(٤٩) الونشريسي، المعيار...، ج /٧، ص٥٢.